بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تبارك وتعالى :{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }[الأنفال: 2 – 4]، ذكَرت هذه الآيات الصفات التي تُميز المؤمنين حقًّا، الذين اكتمَل إيمانُهم وهي الصفات الآتية:

1 –تأثُّرهم بذكر الله تأثُّرًا إيجابيًّا يدفعهم إلى العمل بالأوامر، وترْك الزواجر.

2 – إيمانهم النامي المتزايد المتقدِّم. 3 – توكُّلهم على الله وحده.

4 – إقامتهم الصلاة. 5 – إنفاقهم مما رزقهم الله.

ما أحوج المسلمين اليوم أن يُراجعوا أنفسهم، ويَعرِضوها على هذه الصفات؛ ليجدوا الجوابَ عن أسباب هذا الواقع الأليم الذي يَحيَونه في هذه الأيام!فلننظر بقلب واعٍ إلى هذه الصفات:

أما الصفة الأولى فهي وَجلُ القلوب عند ذِكر الله، إنها شفافية تجعل ذِكر الله سببًا للخشية والخوف من الله، فالخوف من الله صفة من صفات المؤمن الحق، والخوف من الله وقاية للمؤمن من الوقوع في غضَب الله وسخَطه، فمن خاف الله لم يَعصِه، ومن أجل ذلك كان الثواب العظيم لمن يخاف مَقامَ ربه :{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}[الرحمن: 46]{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[النازعات: 40، 41].

إن الذي يخشى ربه بالغيب ويَحذر عذابه يُقيم بذلك الدليل على صدْق دعواه، الإيمان والخوف من الله صفة لا يمكن أن تُفارِق المؤمن الحق أبدًا.

قال مجاهد :{وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}أي: فزِعت وخافت.قال ابن كثير: وهذه صفة المؤمن الحق إذا ذُكِر الله وجِل قلبه؛ أي: خاف منه، ففعل أوامرَه وترَك زواجره.

ونقل سفيان الثوريّ قال: هو الرجل يريد أن يظلِم؛ أي يَهُم بالمعصية، فيقال له: اتقِ الله فيَجِل قلبه.

وأما الصفة الثانية -وهي زيادة الإيمان - وهي مما يُحِسّ به المرء في نفسه وفيمن حوله أنّ المؤمنين تطمئنّ قلوبهم بذكر الله، ويَزدادون إيمانًا بتلاوة آياته تلاوة متأمِّلة تنتهي بأصحابها إلى العمل؛ ذلك لأنّ حلاوة القرآن يتلمَّسها المرء كلما تُليتْ عليه آيات القرآن أو قرأها بنفسه، والمؤمن في ارتقاء وصعودٍ .

وفي القرآن كنوزٌ لا تَفنى، وهو الذي لا تَزيغ به الأهواء، ولا تلتبِس به الألسنة، ولا يَشبَع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه؛ قال الله تعالى :{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[التوبة: 124]

ومما يزيد الإيمانَ أداءُ الواجبات بإخلاص، واجتنابُ المحرّمات والمكروهات بقناعة ومجالسة الصالحين واصطحابُ الأبرار.

والصفة الثالثة: التوكل على الله، وهي من أعظم صفات المؤمنين وأهمها؛ فلا يكون التوكل مقبولاً إلا إذا كان مُنصرِفًا إلى الله فقط لا يُشارِكه سواه، وهذا الذي دلَّت عليه الآية بتقديم الجار والمجرور على الفعل؛ {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2]، قال ابن كثير: أي لا يرجون سواه، ولا يقصِدون إلا إيّاه، ولا يَلوذون إلا بجَنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرِّف في المُلْك وحده لا شريك له، ولا مُعقِّب لحُكمه، وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جِماع الإيمان.

وهنا أودّ أن أنبِّه على اتجاهين خاطئين في فَهْم التوكل:

أما أحدهما: فيَفهم من التوكل عدمَ الأخذ بالأسباب، بينما أن سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم قد أخذ بالأسباب في حياته، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما اتَّخذ من الأسباب في حادثة الهجرة.

وأما ثانيهما :فيذهب إلى أن التوكل لا يُنافي الأخذ بالأسباب، ولكنه يُبالِغ في ربْط النتائج بالأسباب بعيدًا عن الله تعالى وقدَره، ويقول بالحتميَّة التي تأبى أو تنسى أن تجعل ذلك من الله وإليه، فقد يأخذ المرء بالأسباب، ولا يصل إلى النتيجةِ المرجوَّة.

قال صاحب الظلال: (المؤمن لا يجعل الأسباب هي التي تُنشئ النتائج فيتَّكِل عليها، إن الذي ينشئ النتائج كما ينشئ الأسباب هو قَدرُ الله، اتخاذ الأسباب عبادة بالطاعة، وتُحقِّق النتيجة قدرٌ من الله مستقل

عن السبب لا يَقدِر عليه إلا الله، وبذلك يتحرَّر المؤمن من التعبد للأسباب والتعلُّق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدْر طاقته؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها).

والصفة الرابعة إقامة الصلاة، وهي تمثِّل غذاء الرُّوح الذي إن فَقَده الإنسان فَقدَ توازنَه، ومزَّقته الأمراض والعُقد والقلَق وخسِر سعادته الحقيقية يوم القيامة، وكان من الخاسرين.

وإقامتها تقتضي أن تؤدَّى في وقتها بخشوع وحضور قلبٍ .

والصفة الخامسة هي الإنفاق مما رزَقهم الله؛ فالمال مالُ الله، والإنفاق من ذلك دليل على صِدْق الإيمان، وهذه الصفة من أهم الصفات التي يَفقِدها المجتمع الإسلامي اليوم، ولو تحلَّى بها الموسِرون من المسلمين لما كان هناك فقير بين المسلمين، ولما كان هناك مجال للأفكار الهدّامة أن تنتشِر بين صفوف البائسين والكادحين من أبناء المسلمين فيتعاملوا بالقروض الربوية بحجة الحاجة، والإنفاق المذكور في الآية يأتي على العموم ولم يخصصه الله، فمن يُزكى فهو ينفق ومن يتصدق فهو ينفق، وهؤلاء هم أهل الإيمان الذين لا يقفون عند إنفاق واحد وهو فرض الزكاة بل يزيدون الإنفاق بالصدقة وأكثر من ذلك يفعلون

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين